

في تلك الأثناء كان (كلايتون) على إتصالٍ بعدد من اللاجئين العرب في القاهرة. دأبوا على الإجتماع في المقاهي وغيرها من الأماكن العامة، والحوار والمناقشة عمن يكونه العرب؟ وعمما يجب أن تفعله الشعوب الناطقة بالعربية في الإمبراطورية العثمانية. مسألة الهوية القومية هذه كانت تثار أيضاً في دمشق وبيروت. بل كانت موضوع بحث وجدال بين الطلاب العرب بباريس منذ بداية الربع الأخير من القرن التاسع عشر لتؤدي مما أدت الى تأليف جمعيات وطنية ونوادٍ أدبية وأحزابٍ سياسيةٍ سرّية.

كان الشريف حسين - عندما بدأت إتصالات المكتب به. يحكم مكة نيابةً عن السلطان. وإنحداره من العترة النبوية كان شرطاً لتوليته المنصب جرياً على التقليد الذي اتبعه سلاطين آل عثمان منذ ضمّ الحجاز الى الإمبراطورية. في العام ١٩١٤ كان الشريف كهلاً يبلغ من العمر الستين، بعيداً عن روح العصر والتجديد قضى معظم حياته في إسارٍ مترفٍ في العاصمة ولم تسجّل عليه خلالها هفوة اخلاقية واحدة بل عرف بالثقى وبانه كان يقضي جلّ حياته في الصلاة وترديد الأدعية.

ودهش موظفو المكتب العربي في القاهرة عندما تسلموا رسالةً منه صيف العام ١٩١٥ يطلب فيها لقاءً تعاونه ومن دون سابق إنذار أو إعطاء أي تفسير- أن يوضع تحت حكمه كلّ عرب آسيا في مملكةٍ مستقلة، لم ينس تحديدها بدقة مدخلاً فيها جزءاً كبيراً من الوطن الكردستاني وهو بالضبط كردستان العراقية التي تتضمنها ولاية الموصل بحدودها المرسومة آنذاك فضلاً عن جزءٍ من شمال شرق سورية الحالية تقطنه أغلبية كردية.

في تلك الأثناء كانت الحملة البريطانية في ميسوپوتاميا تتعثر وتعاني والتماساً الأنكلو الكردي بعيداً تماماً عن الأذهان.

ولم يظهر أسمٌ لكردستان والكردي في تقرير اللجنة التي شكلها رئيس الوزارة البريطانية (اسكويث)، برئاسة السرّ موريس دي بَنسن Morris de Bunsen حول مستقبل الشرق الأوسط وما تريده بريطانيا منه وشكل الحكم الذي ستأخذ به لها. ذكر أن اللورد اسكويث قال معقباً عندما وضع التقرير امام أعضاء حكومته وبدأ النقاش حول مستقبل الأراضي الخاضعة للإمبراطورية:

«إن مناقشتنا تشبه مناقشة عصابة من القرصان» لكنه أستدرك فقال

« لو اننا تركنا الدول الأخرى تتدافع بالمناكب لتتخاطف تركيا دون أن نأخذ شيئاً لأنفسنا. فإننا لانقوم بواجبنا »^(١٦).

دي بنسن كان موظفاً دبلوماسياً. وتقريره كان بمثابة توصية بما وجب على بريطانيا المطالبة به عند تسوية سلمٍ عثمانية. وهذه اللجنة التي شكلت في ٨ نيسان ١٩١٥ ضمّت خلاله ممثلاً واحداً عن كل من وزارة الهند ووزارة الحرب والخارجية والبحرية ودوائر أخرى. لكن تبين أن صاحب الدور الرئيس فيها والكلمة النافذة ومجمل الآراء التي تضمنها التقرير الذي فرغ منه في ٣٠ حزيران لم يكن غير السرّ مارك سايكس الذي قدر له أن يسهم اسهاماً سياسياً خطيراً في مصائر البلدان الناطقة بالعربية^(١٧) وفي كردستان الى حدّ ما. وبوحي منه وإدارته بحث التقرير في الخيارات المتاحة لبريطانيا وناقش الفوائد النسبية لمختلف أنواع الإستقرار الأرضي: إلحاق الأقاليم العثمانية بالحلفاء، تقسيم الأقاليم الى مناطق نفوذ بدلاً من ضمها. ترك الإمبراطورية العثمانية كما كانت بعد إخضاع حكومتها للحلفاء. احلال إدارة لامركزية بخلق وحدات سياسية تتمتع بشيء من الحكم الذاتي؟

١٦- ه. ه. اسكويث: رسائل الى فينيتيا ستانلي H. H. Asquith: Letters to Venetia Stanly. لندن. مطبعة أكسفورد ١٩٨٢، ص ٥١. بريتون كوير، المرجع السالف، الص ٤٠-٤٢. [قلنا هيرت هنري اسكويث (١٨٥٢-١٩٢٨) رئيس حزب الأحرار ترأس الحكومة بين ١٩٠٨ و١٩١٦. أضطر الى الإستقالة بسبب اضطراب سياسته خلال الحرب وتركها لزميله لويد جورج].

١٧- أرى أن اخصّ بشيء هذه الشخصية السياسية المؤثرة التي سيرد عنها الكثير في الصحائف التالية. كان وقتذاك في حدود ٣٦ عاماً. ينتمي الى عائلة نبيلة غنية. في ١٩١١ أنتخب عضواً في مجلس العموم. قام خلال فترة دراسته في جامعة كمبردج وبعدها برحلات ارتياد واسعة في تركيا الآسيوية ونشر وقائع رحلاته فإستطارت شهرته بوصفه واحداً من ألمع خبراء حزب المحافظين في الشؤون العثمانية. وقضى أربع سنوات ملحقاً في السفارة البريطانية بأستنبول. وكان رساماً كاريكاتورياً بارعاً. ويسبب من مواهبه ومعارفه الواسعة أمّن علاقات حميمة مع كثيرين من الشخصيات السياسية. وعندما إندلعت الحرب إجتهد في أن يجد لنفسه عملاً يستخدم فيه معلوماته وخبراته عن الشرق الأوسط. وكتب في ١٩١٤ رسالة لونسونون چرچل. فلم يردّ عليه إلا انه دخل في مدار اللورد كتشنر وزير الدفاع عن طريق سكرتيره الخاص المقدم فتز جيرالد ليغدو موظفاً في وزارة الحرب وهناك جدد علاقته بالزميل القديم ماكدونو مدير الإستخبارات العسكرية الذي قرّبهُ الى اللورد كتشنر فضمّ الى لجنة دي بنسن ثم ضمّ الى المكتب العربي ليغدو واحداً من أبرز أعضائه. توفي في باريس ١٩١٩ بالأنفونزا وهو الوياء الذي عمّ أوروبا وهلكت به الملايين.

بالأخير رست على هذا البديل الأخير وراحت تدرس عرض الشريف المكّي بشكل جدي. إلا أنّ بريطانيا لم تكن إذ ذاك تستطيع تقديم وعود للحسين دون موافقة فرنسا. والفكرة التي إستقرت في ذهن السيرّ مارك سايكس وقد بات أحد أساطين السياسة في المكتب العربي بنفوذ كبير في دوائر الوايت هول - وحملها الى لندن هي أن العرب أهمّ من الفرنسيين. وتلك فكرة فجّة سخيّة إذا ما وضعت أمام المنطق والتجربة العملية ففرنسا دولة صناعية كبرى. دفعت الى مباديين الحرب بشمانية ملايين جندي. ومستعمراتها الواسعة الأرجاء تلي مستعمرات بريطانيا مساحة. إلا أنّ البريطانيين كانوا قد بدأوا مفاوضاتهم مع فرنسا بخصوص مصائر الشرق الأوسط قبل إتصال الحسين بهم. وذلك لم يكن بوسعهم الإلتزام بشيء له أو مناقشة مقترحاته حول الحدود التي ستمتد إليها مملكته المنشودة. ولذلك وبعد أن خولّ الوايت هول المندوب السامي ماكماهون إعطاء الحسين الوعد المشهور في ٢٠ من تشرين الثاني ١٩١٥، طلب وزير الخارجية البريطاني إدورد غري من نظيره الفرنسي إرسال وفد الى لندن للبحث في مستقبل سورية وحدودها من أجل تحديد مدى حرية حكومته في التعامل مع الحسين [الذي أدخل سورية كلها ضمن حدود مملكته^(١٨)] ولذلك لم تكن رسالة مكماهون وحدها موضع بحث. بل كانت هناك المفاوضات مع فرنسا وروسيا، وبالأخير مع إيطاليا. تلك المفاوضات التي خرجت بإتفاق سايكس- بيكو- سazanوف ويعرف عند المؤرخين العرب بالإسمين الأولين فقط. الإتفاق الذي أدخل أجزاء من كردستان ضمن دائرة المحادثات السياسية لأوّل مرة خلال الحرب.

رأس الجانب الفرنسي [فرنسوا جورج بيكو] ورأس الجانب البريطاني السير آرثر نيكلسن معاون السكرتير الدائم لوزارة الخارجية في مبدء الأمر. وكانت المفاوضات قد بلغت طريقاً مسدوداً عند وصول (مارك سايكس) في كانون الأول ومامرت أيام على وصوله حتى حلّ محلّ (نيكلسن).

كان مارك سايكس الكاثوليكي المذهب من محبّي فرنسا. وقد رغب من كلّ قلبه في إنجاح المفاوضات حيث فشل سلفه فلم يجد مانعاً بل ربما وجده ضرورياً أن تتولى فرنسا حماية مسيحيي سورية ولبنان وفلسطين. وهو فضلاً عن هذا لم يكن يملك تلك الخبرة

١٨- تشمل سورية ولبنان وفلسطين وإسرائيل الحالية.

السياسية التي يملكها (بيكو) ذلك الدبلوماسي الحاذق ذو الخبرة الطويلة في شؤون المستعمرات فضلاً عن وجهة نظره السالفة المعروفة عن سورية وكان الإتجاه العام في فرنسا هو لزوم إحتفاظها بسورية «إنجازاً لرسالتها التاريخية Mission Historique على حدّ تعبير [مسيو پييراتين فلاندان] زعيم الحركة الفرنسيّة- السورية في مجلس الشيوخ.

وكان من خطّة (بيكو) التظاهر لـ(سايكس) بأن فرنسا لا ترضى بأقلّ من حكم مباشر لسورية، حتى انه عندما يقوم بتعديل إدعائه - يستطيع الحصول على تنازلات بالمقابل والذي كان يأمل الحصول عليه هو توسيع مجال النفوذ الفرنسي شرقاً ليشمل ولاية الموصل. وفي مناورته هذه التي إعتبرها سراً، لم يكن يدري أن (سايكس) ومن ورائه (اللورد كتشنر^(١٩)) ينويان إعطاءه الولاية. إذ كانا يريدان أن يمتدّ النفوذ الفرنسي من البحر الأبيض المتوسط غرباً حتى أقصى الشرق الذي تمتد اليه حدود الإمبراطورية العثمانية الزائلة ليكون الفرنسيون بمواجهة روسيا عاملاً لوقف إمتداد النفوذ الروسي وراء المناطق الكردية والتركية وهي المناطق التي تسكنها أغلبية عربيّة وبهذا يحققون التوازن بين الإثنيين. بكلمة أخرى لتقوم فرنسا هناك بمثابة سور الصين حامية للممتلكات البريطانية في الشرق الأوسط. كان البريطانيون وقتذاك مستعدين حتى للتضحية بمصادر النفط في ولاية الموصل في سبيل وضع فرنسا بمواجهة الروس. وبرأي [ماريان كنت]:

«من وجهة النظر العسكرية كان مبدء دقّ أسفين في أراضٍ خاضعة للفرنسيين بين أي مجال نفوذ فرنسي وبين القفقاس الروسي يبدو أمراً حسناً من أي جهة نظرت إليه»^(٢٠).

من ناحية أخرى كان (سايكس) يطمع في الموافقة الفرنسية على الحملة المصرية. فأكدّ لحكومته منذراً بأنّ مسيحيي سورية لن يقبلوا بأيّ شكل من الحكم لأمير مكة.

١٩- H. H. Kitchner (١٨٥٠-١٩١٦). فيلدمارشال وزير الدفاع ١٩١٤-١٩١٦. في العام ١٨٩٨ هزم المهدي في موقعة أم درمان في السودان وأعاد سيطرته على الخرطوم. توفي غرقاً وهو في طريقه الى روسيا عندما إصطدمت سفينته بلغم بحري.

٢٠- ماريان كنت: النفط والإمبراطورية. السياسة البريطانية و النفط ميسوپوتاميا Marian Kent: Oil and Empire: British Policy and Mesopotamia oil 1900-1920 لندن ١٩٦٧، ص ٨٩.

وعاد (كامبون) السفير الفرنسي في لندن الى تأكيد ذلك بقوله أن الحكم الفرنسي هناك ضروري للحيلولة دون نشوب حرب أهلية دينية.

بالأخير حصل الإثنان، كلُّ على ما يريد من الآخر: فرنسا، ستحكم لبنان الكبير وتسيطر نفوذاً لانزاع فيه على سورية وتحصل على نفوذ يمتد الى ولاية الموصل في حين تبقى ولايتا بغداد والبصرة للبريطانيين. وبقيت فلسطين عقبة فقد أرادها (سايكس) لبريطانيا في حين أصرَّ (بيكو) على ضمِّها الى النفوذ الفرنسي. وبالأخير توصل الطرفان الى حلِّ وسط: ان تحصل بريطانيا على مينائي حيفا وعكا وحزام أرضي تمدُّ فيه سكة حديد منهما حتى ميسوپوتاميا. في حين تناط إدارة البقية بهيئة دولية وماعدا هذا في الشرق الأدنى تؤلف منه دولة عربية أو نوع من الكونفدرالية لعدد من الدول المستقلة إسمياً إلا أنها عملاً ستكون في مجالي النفوذ الإنكليزي والفرنسي على أن تطلق يد روسيا في بقية الآيات العثمانية الشمالية الشرقية بأغلبيتها الكردية. وقّع الإثنان هذا الإتفاق في الثالث من شهر كانون الثاني ١٩١٦. وكان عليهما أن يشركا الحليف الكبير الثالث روسيا فيه ويحصلوا على موافقتها.

في أوائل شباط من السنة عينها وبعد أن حظي الإتفاق بمصادقة الحكومتين شد مهندساه الرجال الى سان بطرسبورغ لنيل التوقيع الروسي. لم يكن (سايكس) يعلم ان الحكومتين الفرنسية والروسية توصلتا فيما بينهما الى حلِّ قضية فلسطين الشائكة من خلال مفاوضات سرية جرت في السادس والعشرين من نيسان ١٩١٦. وفيها فصلت الحدود التي كان سيتمد إليها نفوذ الدولتين بعد زوال الإمبراطورية العثمانية ويتضمن الإتفاق تعهد روسيا بدعم فرنسا في المفاوضات التي ستجرى مع بريطانيا حول شكل الحكومة المقترحة لفلسطين كما تضمنت أيضاً الاعتراف بان التسوية التي تمت في كانون الثاني ١٩١٦ بخصوص السيادة الفرنسية وشكلها غير نهائية وان ذلك سيكون من شأن فرنسا وحدها.

ولم يضع سيرجي ديمتروفتش سazanوف وزير الخارجية الروسي توقيعه على إتفاق سايكس بيكو^(٢١) إلا بعد أن ذُيِّل بملحق له يبيِّن حصّة روسيا من كردستان^(٢٢).

٢١- لم ينشر تصريح بلفور بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين إلا في السابع من تشرين الثاني ١٩١٧ ولذلك لم يجر بحث إقامة وطن قومي لليهود في فلسطين لا أثناء المفاوضات الثنائية =

طبعاً بقي أمير مكة يجهل التقسيم. وفي مصر قام (سايكس) بتقديم صديقه (بيكو) لمجموعة من رجال العرب المبعدين. ثم أخذه الى جزيرة العرب في زيارة للشريف وقيل انهما أطلعوهما على الإتفاق وهذا محض هراء لأن محتوى الميثاق كان يناقض تماماً ماطالب به الحسين وما كان يأمله، بدليل أنه صدم به حال إذاعته ونشر بنوده في العام ١٩١٨. إلا أن المكتب العربي أنذر سايكس بأن التواجد الفرنسي في الشرق الأدنى قد يتمخض بمأس. لكن (سايكس) مضى قدماً في محاولة التقريب بين بيكو وبين الحسين وأولاده. وفي النهاية أبرق الى حكومته «توصل بيكو الى تفاهم مع العرب!»

= ولا في سان بطرسبرغ. ومن الجدير بالذكر أن الروس لم يكونوا يكتون أي عطف لليهود ولا لدعواهم بإنشاء وطن قومي في فلسطين. وفي العاصمة الروسية تم إقناع (سايكس) بان الصهيونية اليهودية قوة خطيرة معادية لروسيا. وهي عدوة خطيرة للبلاد الأخرى. غير أن (سايكس) أبلغ وزير خارجيته بأنه قال لزميله (بيكو) أن بريطانيا لاتهتم بحيازة فلسطين لكنها مطمح الصهاينة وهم يريدونها وعلى الحلفاء أن يحسبوا لهم حساباً فيها وأن يُقطعوهم جزءاً منها لو شاؤا ربح الحرب!

٢٢- تعين في هذا الملحق حدود الجزء الذي سيكون لروسيا من الوطن الكردستاني: وهي كالاتي: الأقليم الواقع جنوب (وان) و(بتليس) ما بين محور موش- سعرد- دجلة- جزيرة ابن عمر. ومنتهياً بخط القمم الجبلية المشرفة على كل من العماديه وميرغور.

الفصل السادس

حملة ما بين النهرين وكارثة الكوت. إعلان الشريف المكيّ ثورته.
تقدم الحملة وإحتلال بغداد. (لويد جورج) وولاية الموصل (جنوب
كردستان) المساومة مع فرنسا والسعي لإحتلال الولاية عسكرياً.
مقتل إتفاق سايكس بيكو سازانوف في أعقاب ثورة أكتوبر ١٩١٧
الروسية.

في أثناء ما كان المكتب العربي في القاهرة ينتظر ويحتث قيام ثورة عربية تختم
على مصير الإمبراطورية العثمانية. وقد تصرّم ثمانية عشر شهراً إعتباراً من بدء
الحرب على مفاوضات عقيمة مع الشريف حسين وبعوث ومراسلات. إذ بوزارة الهند
تطلب من المكتب التّدخل لتنظيف وكنس آثار حملة معتوهة سيئة العقبى في مجرى
الحرب ضد الأتراك هي حملة ميسوپوتاميا ذات النطاق الضيق بنتائجها الأولى التي
كانت فشلاً ونكبة تزي بحملة غاليبولي على البوسفور^(١).

فقبل نشوب الحرب بشهر واحد أمرت لندن بإعداد قوة من الهند ترسل الى الخليج
الفارسي لغرض حماية إمدادات النفط من مصفى عبادان من نشاط الجواسيس والعملاء
الألمان التخريبي بين قبائل القشقاي والبختياري في فارس. هذه القوة تحركت في ٦ من
تشرين الثاني نحو الخليج. وهو عين اليوم الذي شهد إعلان بريطانيا الحرب على تركيا.
سقطت (الفاو) بعد ضرب قصير بالمدفعية. وبعدها بأسبوعين إحتلت القوات الأرضية
الصاعدة مدينة البصرة التي تبعد حوالي مائة وعشر كيلومترات عن فم الخليج، خلافاً
للغرض الذي عُهد به اليها وهو حماية حقول النفط من هجومٍ في فارس.
والمقاومة التركية كانت ضعيفة. والبصرة تبعد مئات كثيرة من الكيلومترات عن

١- يراجع للتفاصيل كتاب: سي جيّ لو و م. ل. أوكيل: سراب السلطة، (ج ٢) سياسة بريطانيا
الخارجية ١٩١٤-١٩٢٢ C. J. Law. and M. L. Oekeill: The Mirage of Power. Vol 2: British Foreign
Policy 1914-1922. ط. لندن ١٩٧٢. الص ٢٨٨٩ وما بعدها.

مركز حشد القوات التركية وإمدادها بالقرب من بغداد. لذلك تمكنت القوات البريطانية من صدّ هجمات معاكسة. وشتتت شمل القوات النظامية وقوات العشائر الملبية دعوة الجهاد بسهولة تامة في معركة الشعيبية. إلا أن الفريق (سر جون نيكسون) المعين حديثاً لقيادة الحملة كان طموحاً وقد غرّته الانتصارات الأولى. فما أن تسلّم القيادة في نيسان ١٩١٥ حتى بعث بقوة يقودها أمير اللواء (چارلس فيرس طاونسند) صعداً بمحاذاة دجلة وراء إنتصارات جديدة وبكثير من العجلة وقلة تبصر أو ربما سعيّاً وراء هدف استراتيجي معين. بالأخير أمر نيكسون هذه القوة بالزحف على بغداد، رغم إحتجاج طاونسند ومخاوفه وتطيّره من النتائج. إذ كان بين البصرة وبغداد مسافة تزيد عن ستمائة كيلومتر. والزحف لقطع هذه المسافة مع التعرض للعدو والمعارك المحتملة، كان يحتاج الى خبرة سوقية عالية وقوات كبيرة ووسائل نقل نهريّة كافية ومعدات مستشفى ميدان ومدفعية وأعتدة وأرزاق ولم تكن حكومة الهند آنذاك قادرة على تأمين ذلك لحملة مثل هذه.

كانت قوات طاونسند تتقدم عبر أرض قفر ومستنقعات وأهوار لا طرق فيها ولا سكة حديد ولذلك وجب عليها الزحف بمحاذاة دجلة الضحل الكثير المنحنيات الذي يضيع مجراه أحياناً في الأهوار وكانت الحاجة ماسّة الى أسطول من الزوارق تناسبه والبلاد فوق ذلك موبوءة بالمalaria وغيرها من أمراض المستنقعات المألوفة التي تفرض وجود مستشفيات ميدان ومهمات وخدمات طبيّة.

رغم كلّ هذا قاتل هذا الجنرال بصبر وعناد وشقّ طريقه بموهبة قيادية فذة تقرب من العبقرية وكاد يحقق نصراً عزّ نظيره في تاريخ الحروب لو وصلته في الوقت المناسب الأعتدة والأرزاق والتعزيزات التي طلبها. وفي قرية (سلمان باك) التي تبعد زهاء ٣٣ كيلومتراً جنوب بغداد حيث رابطت قوته الصغيرة. علّم أن الفيلدمارشال گولمان فون در گولتسه الذي كان يعدّ واحداً من كبار استراتيجيي عصره - قد تسلّم القيادة العليا لسائر القوات العثمانية في ميسوپوتاميا. كما علم بأن ثلاثين ألفاً من الجنود الأتراك هي على وشك تعزيز الثلاثة عشر ألفاً الذين يواجههم، في حين لم تكن قوات طاونسند تتجاوز هذا العدد وبحالتهم تلك التي وصفناها.

وأدرك طاونسند ببعد نظر أن أقرب موضع يمكنه من الصمود في وجه هذه القوات